الدرس الثالث:

الفكر اليوناني القديم: ما قبل سقراط

تمهيد:

لعب الفكر اليوناني القديم دورًا محوريًا في نقل الفكر الإنساني إلى مستوى أعلى وأعمق وأكثر شمولا بشكلٍ لم تسبقهم إليه أي حضارة أخرى من قبل، وقد خاض المفكرون اليونانيون القدماء جميع التخصصات الكبرى المعروفة آنذاك من فلسفة ومنطق ورياضيات وفلك وخطاب ومحاججة، وكذلك العدالة والقانون والفنون وغيرها، بيد أن أهم مرتكزات الفكر الإنساني العالمي اليوم متأثرة بشكلٍ أو بآخر بالفكر اليوناني القديم.

وفي درس اليوم، سنحاول التعرف على الفكر اليوناني القديم، وأهم منجزات مفكري الحضارة اليونانية القديمة، والمجالات التي أبدعوا فيها.

1. **نشأة الفكر اليوناني القديم:**

كانت اليونان دولة ضخمة مترامية الأطراف، تشمل عشرات المدن الكبرى المتوزعة بين أوروبا وآسيا وإفريقيا، بعضها مدن يونانية أصلية وبعضها الآخر مستعمرات محتلة، بيد أن هذه المدن والمستعمرات الكثيرة المنتشرة على محيط البحر الأبيض المتوسط من الشرق إلى الغرب مستقلة عن بعضها في السياسة الداخلية والإدارة وطريقة تسيير شؤونها، ولكنها تلتقي في كونها تؤلف مع بعضها البعض عالمًا واحدًا هو الإمبراطورية اليونانية التي تجمع بين أجزائها وحدة الجنس واللغة والدين، فكان اليونانيون كلهم يعبدون إلها واحدا وهو "تزوس" ويحجون إلى معبده الأكبر في "أولمبيا"، كما كانوا يأتون من جميع تلك المدن في الأعياد الكبرى وهم يحملون التقديمات والقرابين. وقد كانت فترة الحج والأعياد تلك بمثابة أشهر حرم توقف فيها الحروب،

وتُقام خلالها الألعاب الرياضية وأسواق الأدب والفن، فيُنشد الشعراء، ويغني المغنون، ويعرض المصورون والممثلون أعمالهم، وتزدهر التجارة والتبادل السلعي وربط علاقات جديدة. 1

وكانت كانت فترة الأعياد والحج هذه بالضبط هي المحفز الأساسي للمفكرين والمبدعين للاجتهاد طول السنة من أجل عرض منجزاتهم الفكرية والفنية والإبداعية خلال تلك الفترة، وأيضا فرصة لهم لمعرفة ما حققه المبدعون الآخرون وما قدموه للعلم والفكر، خاصة مع ما يقابل تلك الاستعراضات والكشوفات من تقديمٍ للهدايا والعطايا للمبدعين والمتفوقين. 2

وقد كان هذا الاتصال المستمر بالعاصمة، وتلاقي الجميع في آجال معينة وتبادل الأفكار والمعارف والسلع عاملا قويًا في إنضاج الحضارة اليونانية على النحو الذي جعلها متفوقة في عصرها ومؤثرة على مدار التاريخ، ويرجع الفضل الأكبر فيها للمستعمرين اليونانيين بالإجمال، إذ أن مخالطتهم للأمم الأجنبية التي استعمروها قوّت نسلهم، ووسعت مداركهم وحررت عقولهم، فانتفعوا بعلوم الأمم الشرقية التي احتلوها ونقلوها إلى بلادهم الأصلية، فبنوا الثقافة اليونانية الثرية والمتنوعة والتي منها خرج الفكر والعلم والفن والمسرح وغيره، والتي مازال تأثيرها جليا إلى يومنا هذا.

ويحظى حاليًا المفكرون والفلاسفة اليونانيين الأوائل بدراسات علمية جادة عند الباحثين وفي المكتبات والجامعات، لكن العديد منهم اشتهروا في بدايتهم فقط بما يمكن أن يُنظر إليه باعتباره فرعًا من الأعمال الاستعراضية فقط؛ فقد كان المثقفون والمبدعون والمفكرون يظهرون للناس مرتَدِين ثيابًا فخمة في الغالب ويُلقون المحاضرات عليهم والخطب أو يقولون قصائد الشعر فيهم. وقد جذبت هذه العروض الكثير من المارة والأتباع المخلصين وأصحاب العقول في بعض الأحيان، ويعرف هؤلاء اليوم باسم "المفكرون والفلاسفة ما قبل سقراط"، وقد دَوَّن العديد من فلاسفة ما قبل سقراط أفكارهم بالإضافة إلى إلقائها على الملأ، ولكن يمكن بالكاد التعرف عليها ممَّا تبقى منها حتى اليوم؛ إذ تناثرت كتاباتهم بمرور الوقت ولم ينجُ منها إلا القليل. وطوال ما يقرب من ألفي عام، ظَلَّ الباحثون يبحثون في فقرات لا تتجاوز بضع عبارات، ويقفون على بعض الكلمات هنا وهناك وهنالك، معوِّلين في ذلك تعويلا شديدًا على مصادر ثانوية لا يجدون

غيرها. كما يقومون بالاعتماد على بعض التعليقات القديمة على تلك الأجزاء التي عُثر عليها في محاولة لتحرِّي الدقة على أقل تقدير.3

إن الظروف السياسية، والتطورات الكبيرة التي عرفها التنظيم السياسي اليوناني، ساعدت في تطور الفكر اليوناني كثيرا وخروجه من عباءة الميوثولجيا والآلهة إلى التفكير المنطقي العقلاني، وبات من الممكن مناقشة القواعد والأفكار وتعديلها وحتى استبدالها بقواعد أخرى تتوافق بدرجة أعلى مع التغيرات التي جرت أو كانت تجري في المجتمع، إذ كان التذرع بإرادة الآلهة، والاعتماد على التقاليد وتعاليم الآباء الأقدمين بمثابة حاجز ضد أي تفكير تطوري، في حين أصبح الآن على كل من يريد بلوغ شيء ما أن يأخذ في الإعتبار ظروفا كثيرة، فبات من الضروري مراعاة توزع القوى في المجتمع والمزاج العام للمواطنين، وأصبحت القدرة على الاقناع في أنك على صواب باعتماد "الحجج والمنطق" بمثابة أمر بالغ الأهمية. كما لعبت ميول اليونانيين إلى المجادلة وحبهم للمعارضة دورا كبيرا في تطور الفكر اليوناني. 4

وقد مرّ الفكر اليوناني بثلاثة مراحل كبرى: مرحلة النشوء، ومرحلة النضوج ومرحلة الذبول. والمرحلة الأولى فيها عصران: عصر "ما قبل سقراط"، وهو يمتاز باتحاد وثيق بين العلم الطبيعي والفلسفة، وعصر السوفسطائيين وسقراط ويمتاز بتوجه الفكر إلى مسائل المعرفة والأخلاق.

أما المرحلة الثانية، فيملؤها أفلاطون وأرسطو، أين اشتغل أفلاطون بالمسائل الفكرية والفلسفية كلها، وأجهد نفسه في تمحيصها، ومزج الحقيقة بالخيال، والبرهان بالقصة، حتى جاء أرسطو والذي عالج نفس القضايا بالعقل فقط وابتعد عن الخيال والعواطف والماورائيات، ونجح إلى وضعها وضعا فكريا نهائيا. أما المرحلة الثالثة والأخيرة، فتمتاز بتجديد المذاهب القديمة وبالعودة إلى الأخلاق والتأثر بالشرق، والميل إلى التصوف مع العناية بالعلوم الواقعية. على أن نخصص هذا الدرس لفكر اليوناني في مرحلة ما قبل سقراط، في حين أن الدروس التالية في مقياسنا هذا ستكون مخصصة لأفلاطون وأرسطو والسفسطة مستقلة.

2. الفكر اليوناني ما قبل سقراط:

أ. هوميروس والهوميريسون:

هوميروس هو مفكر وشاعرٌ وأديب ملحمي يوناني، وهو مؤلف الملحمتين الإغريقيتين الشهيرتين "الإلياذة" و"الأوديسة"، وبشكلٍ عام، فقد آمن اليونانيون القدامى بأن هوميروس كان شخصية تاريخية فذة، رغم تشكيك البعض في ذلك حاليا واعتباره شخصية وهمية جُمعت تحت اسمها مختلف الانجازات الشعرية والأدبية الفكرية اليونانية القديمة التي تُظهر تفوق اليونانيين في الشعر والمسرح والآداب.

فبالنسبة للباحثين المعاصرين، فإن الهوميروسية أو "تاريخ هوميروس" تعني تاريخ بداية تطور الفكر الأدبي، عبر تأليف القصائد والنشر الشعري باعتبارها شكلا أدبيا مرموقا، أين تعد "الإلياذة" أقدم نصٍ أدبي مكتوب في الأدب الغربي. في العقود القليلة الماضية، حيث حاجج بعض الباحثين كثيرا ليثبتوا أن الآداب الهوميروسية تطورت تدريجياً خلال حقبة زمنية طويلة نسبياً تمتد لعدة قرون، وبالتالي فإنّ هوميروس ليس شاعرا ومفكرا يونانيا بل هو فترة أدبية مرموقة من تطور الآداب الشعرية الفكرية اليونانية.

إذن، تكمن أصول التفكير التاريخي اليوناني في شكلها الأولى ما قبل السقراطي في الشعر الملحي، وبالأخص الإلياذة والأوديسة المنسوبتان لهوميروس، واللتين صورتا الأمجاد البطولية للإخائيين في العصر البرونزي خلال حرب طروادة وما تلاها. وقد نُسبت معظم الأفعال البطولية والأحداث المحورية إما للبشر وعواطفهم وإما للهوى الإلهي وقوة الآلهة. ومع أقدم المؤرخين اليونانيين الذين دونوا نثرا، بعد بضعة قرون من ذلك، فإنا نسجل تطورا فكريا ونثريا كبيرا، إذ تنتقل البطولات بنحو أكمل إلى عالم الأفعال البشرية، مع بعضٍ من التدخل الإلهي. 5

كما عرف اليونانيون في هذه المرحلة "التأريخ"، اين يعتبر المفكر اليوناني "هيرودوتس" أول من استعمل لفظة historia (التي تعني التحقق) ليدل على شيء بمعنى "تحقيقات" أو "اكتشافات"، دون إشارة محددة إلى الماضي أو الحاضر. إذ كان هيرودوتس مهتما بالمكان كاهتمامه بالزمان، وكان فضوله تجاه العالم يدين بالكثير للجغرافيين الإغريق و"وصف الأرض". وخلال

مدى قصير نسبيا يبلغ قرنين أو ثلاثة، استكشف اليونانيون ماضيهم عبر عدة أصناف مختلفة من الكتابة التاريخية، فظهر علم الأنساب، ودراسة الأساطير، وعلم الأجناس ودراسة البلدان وعادات شعوبها، التاريخ المعاصر، والسرد المستمر لأحداث متعاقبة مع الاهتمام بعلاقاتها السببية، وتطوير التوثيق الزمني كنظام لتسجيل الزمن، كما طوّروا علم تاريخ المدن horography (أي رصد تاريخ مدينة معينة عاما بعد عام). 6

ب. فيثاغورس والفيثاغورية:

وُلِدَ "فيثاغورس" عام 570 ق.م. وتوفيٍّ عن عمر يناهز سبعين عامًا؛ ورغم أنه كان أيونيًّا (نسبة إلى مدينة إيون اليونانية) فقد غادر موطنه وهو شاب نحو المستعمرات الإغريقية جنوبِيَّ إيطاليا وقضى بها ما تبقَّى من حياته. وعندما هاجر كان صيتُه قد ذاع بالفعل بوصفه حكيمًا زاهدًا. ثم استقر فيثاغورس في مدينة كروتون جنوبي إيطاليا وأنشأ مدرسته فيها، ولعب فيثاغورس وأتباعه ومدرسته دورًا رئيسًا في سياسة المدينة وفكرها. 7

وقد تفوق هوأتباعه اساسا في الريايات، إذ تُعَدُّ الرياضيات بالنسبة للفيثاغوريين مفتاح النظام والجمال في الكون، وتقع مسؤولية اكتشافهما على عاتق الفلسفة. فحسبوا المساحات واستعملوا جداول الضرب والقسمة والدوائر والزوايا، وأخيرا وطبقًا للروايات التي تناقلتها الأجيال، فقد بدأ الفيثاغوريون بعد ذلك بالاكتشاف العظيم للعلاقة الموجودة بين الأرقام والأصوات الموسيقية، كما يعود الفضل للفيثاغوريين في اكتشاف العمليات الرياضية المتعمقة وانجازها، واستعمالها في الفكر والتجارة والمحاسبة والزراعة وغيرها. 8

يذكر أنّ فيثاغورس هو الذي وضع لفظ « فلسفة »، إذ قال عن نفسه أنا لست حكيمًا بل فيلسوفا محبا للحكمة (بالإضافة إلى كان رياضيًا بارعًا)، ولعل أهم آثاره في هذا الباب أنه برهن على أن قوة الأصوات تابعة لطول الموجات الصوتية، وبيّن أن الأنغام تقوم خصائصها بنسب عددية يمكن أن يترجمها بالأرقام، فوضع أُسس الموسيقى باعتبارها علمًا بمعنى الكلمة عبر إدخال الحساب عليها، ولا شك أن دراسة الفيثاغوريين الأعداد والأشكال والحركات والأصوات وما بينها من تقابل عجيب، وما لها من قوانين فرأوا أن هذا العالم أشبه مركب من نظام متناسب.9

ج. طاليس المالطي والفكر الطاليسي:

ولد طاليس المالطي نحو 624 ق.م، وهو عالم ومفكر ورياضياتي وعالم فلك وفيلسوف يوناني من المدرسة الأيونية، وهو أحد «الحكماء السبعة» عند اليونان، يعتبر أول مفكر يرى بأن الماء هو أصل الأشياء كلها، وساهم في اكتشاف عدد من النظريات الهندسية المهمة، وكان رافضا الأخذ بالخرافات والأساطير، وكان من أوال المفكرين الذين تمكنوا من التنبؤ بميعاد حدوث كسوف الشمس، كما حاول تحديد الأفلاك السماوية بالنسبة للأرض، النجوم والأقمار، وقال عنه أرسطو بأنه الفيلسوف اليوناني الأول، كما أنه أول عالمٍ في الحضارة الغربية يُفكر بالفلسفة العلمية ويُشارك فيها، إذ يُعرف طاليس (ومن بعده الطاليسيون) بابتعاده عن استخدام الأساطير لشرح العالم والكون، وشرح الأشياء والظواهر الطبيعية من خلال النظريات والفرضيات، وهي الطريقة التي تبعه فيها جميع فلاسفة مرحلة "ما قبل سقراط" تقريبًا في شرح الطبيعة والاستدلال بدلا من استخدام التفسيرات الأسطورية.

وفي الرياضيات، استخدم طاليس الهندسة لحساب ارتفاعات الأهرامات وبُعد السفن عن الشاطئ. وهو أول شخص معروف يستخدم المنطق الاستنباطي ويُطبقه على الهندسة، وذلك باشتقاقه أربع بديهيات لمبرهنة طاليس، وهو أول عالم معروف يُنسب إليه اكتشاف رياضي.10

3. **صور عامة عن الفكر اليوناني القديم:**

إن تأثير الأفكار اليونانية والفكر اليوناني كبير، ذلك أنه في كل لحظة يقرأ الإنسان فيها، أو يذهب إلى المسرح أو يستعمل مفردات طبية أو علمية ما، فهو يتكلم اليونانية، ويفكر باليونانية، ويتنشق هواء القرنين الخامس والسادس.

إذ يعود الفضل للفكر اليوناني القديم في اختراع مفاهيم محورية مستعملة إلى يومنا هذا، مثل "التأريخ"، "الديمقراطية"، و"العدالة"، فقد ولّدت الحضارة اليونانية نماذج ثقافية تتمتع بطاقة هائلة. وقد برزت هذه الأفكار ببطء انطلاقا من شكل نظام سياسي اختاره الشعب اليوناني لنفسه وهو "المدينة" (polis) التي تكونت فعليا وتحققت خلال القرن السادس قبل الميلاد، والتي رافقها تطور الفكر العقلاني أيضا، إذ أكد الخطاب العقلاني اليوناني على فعاليته

وخاصيته، والذي رافقه بروز إبداعات ثقافية وسياسية رئيسية منها، نمو عدة أفكار حول العقل والإنسان والطبيعة والأخلاق والسعادة، وتأسيس المدينة اليونانية. 11

هذه الأخيرة ، أي المدينة اليونانية polis تشير إلى تمدّن اليونانيين، وتخلصهم من البربرية، وهي شكل مميز من أشكال تطور العالم فكري اليوناني القديم، إذ ساهمت الحركات الاستعمارية الكبيرة وتوسع اليونان في آسيا إلى تطور هذه المدينة التي تكونت في البدء في المدن المستعمرة ثم في البلد الأم و أثينا. و هكذا تنظمت مدن لأنه لم يكن إذن وجود لدولة يونانية منظمة، وباتت اليونان كيانا سياسيا وفكريا ذا بنية محكمة التنظيم. 12

قائمة المراجع المستعملة حسب ترتيب ظهورها:

1. يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، دار هنداوي للنشر، القاهرة، 2014، ص 14
2. يوسف كرم، مرجع سبق ذكره، ص 15
3. أنتوني جوتليب: حلم العقل، تاريخ الفلسفة من عصراليونان إلى عصرالنهضة، دار هنداوي للنشر، القاهرة، 2014، ص 24
4. دينيس أليكسانردوفيتش تشيكالوف وفلاديمير كوندراشوف: تاريخ الثقافة العالمية، مشروع كلمة للترجمة، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، 2014، ص 127
5. دانيال وولف: تاريخ موجز للتاريخ، دار الرافدين للنشر والتوزيعن بغدادن 2022، ص50
6. دانيال وولف، مرجع سبق ذكره، ص51
7. أنتوني جوتليب، مرجع سبق ذكره، ص 44
8. أحمد فؤاد الأهواني، المدارس الفلسفية، دار هنداوي للنشر، القاهرة، 2014، ص 17.
9. يوسف كرم، مرجع سبق ذكره، ص 36
10. أحمد فؤاد الأهوانى، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار العبار، القاهرة، 2023، ص 27.

11. جاكين روس، مغامرة الفكر الأوروبي، قصة الأفكار الغربية، مشروع كلمة للترجمة، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، 2011، ص 41

12. جاكلين روس، مرجع سبق ذكره، ص 41